الوثائق المسرّبة عن الرئيس (المحجوبة صورته)

الكاتب : حازم الأمين

التاريخ : 18 إبريل 2016 م

المشاهدات : 6087

صحيفة "ممانعة" تخوض معركة النظام السوري منذ اليوم الأول من أزمته، وتنشر تحقيقات عن "انتصاراته" وعن "المؤامرات الدولية" عليه، لم تشعر أن حدث الانتخابات السورية التي أجريت يوم الأربعاء الفائت يستحق صدر صفحتها، وأن صورة رئيس النظام بشار الأسد، التي جندت نفسها للدفاع عنه، وهو يقترع، يمكن أن تُشكل إغراءً لقارئها، فاختارت لغلافها صبيحة اليوم الذي أعقب الانتخابات صورة مقترعة افتراضية للانتخابات البلدية اللبنانية المزمع إجراؤها في المستقبل.

الصحيفة تريد للسوريين رئيساً لا تشعر هي أنه يستحق صورة غلافها يوم الانتخابات السورية. والحال أن الصحيفة كانت مصيبة في حجبها صورة رئيس نظامها في ذلك اليوم، ذاك أن الحدث لا يُمثل شيئاً، والحد الأدنى من الرغبة في احترام ذكاء القارئ يقتضي حجب الصورة.

لكن "الحدث السوري" المحجوب ترافق مع حدث آخر يطرح بدوره تساؤلاً عن إيمان حلفاء بشار الأسد به، على رغم قتالهم لحماية موقعهم في نظامه. والحدث كان ما نشرته مجلة "نيويوركر" من وثائق تُثبت تورط الأسد شخصياً في أعمال القتل الجماعي التي شهدتها سورية في السنوات الخمس الفائتة. والوثائق يمكن أن تشكل مادة محاكمة دولية متماسكة للرئيس المحجوبة صورته في يوم الانتخاب. وهذا علماً أن ستيفن راب، وهو محام عمل مدعياً في محكمتي راوندا وسيراليون الجنائيتين الدوليتين، قال: "إن الوثائق السورية التي كتبت عنها "نيويوركر" أغنى بكثير من أي شيء رأيته، وأي شيء قمت بالادعاء مستنداً إليه، في كل تجاربي".

أما جامع الوثائق ومسربها فهو ليس إلا أمين سر خلية الأزمة، تلك الهيئة التي كانت ترفع توصياتها بضرورة تعميم القتل إلى الرئيس ليوقع عليها، ويضيف إليها توصيات بمزيد من القتل.

الذهاب بهذه الوثائق إلى المحكمة الجنائية الدولية يبدو متعثراً لحاجته إلى قرار من مجلس الأمن الدولي. لكن الملف الذي أصبح وفق "نيويوركر" مكتملاً سيكون وثيقة يُمكن إشهارها في وجه أي رغبة دولية في معاودة العلاقة مع النظام السوري.

ذاك أن الولايات المتحدة الأميركية، مثلاً، ستكون في حال قررت أن تقيم قنوات تواصلٍ مع الرئيس المحجوبة صورته في صحيفته، أمام ملف يدينها وفق القيم التي تدعي أنها ترعاها.

العلاقة مع بشار الأسد تعني علاقة مع قاتل مثبتة فعلته، أو فعلاته. والغرب مهما تقدمت مصالحه على قيمه لن يتمكن من تجاوز عقبة على هذه الدرجة من الوضوح، ذاك أن شروط العلاقة بين الغرب ومواطنيه وقوانينه وقيمه ستكون عرضة للاهتزاز. ومثال فعلة الصحيفة الممانعة في يوم الانتخابات السورية واضح هنا، فادعاء حد أدنى من العلاقة مع ذكاء القارئ اقتضى إخباره بأن الانتخابات السورية "ليست حدثنا" على رغم أن الرئيس، المحجوبة صورته، قال إنها ترسم مستقبل سورية.

هذه المعادلة تقودنا إلى تساؤل آخر هو: هل ثمة من بين حلفاء بشار الأسد من هو مؤمن بقدرته على البقاء رئيساً في ظل أي تسوية ومهما كانت ظروفها؟

يفترض المرء أن دولاً كروسيا وايران، تُدرك استحالة الأمر وأن رجلها في سورية صار خارج مستقبل بلده، إذا كان المستقبل سلاماً وتسوية! إذاً لماذا كل هذه الدماء؟

مهما كانت الإجابة، ومهما تفاوتت الأثمان المطلوبة بين موسكو وطهران، فإن شيئاً رهيباً تشهده سورية يتمثل في أن إبادة تجرى، وظيفتها انتظار الثمن الذي تقتضيه "التضحية" برئيس لا يؤمن أحد بإمكان بقائه. الفظاعة هنا تفوق فظاعات عمليات الإبادة التي شهدها القرن المنصرم بصفته قرن الإبادات. والفظاعة هنا نوعية وليست كمية، ذاك أن مادتها لا تقتصر على عدد الضحايا، إنما تشمل موضوع المقتلة. فالرئيس المطلوبة حمايته لا يؤمن به المقدمون على الفظاعة، ومن المفترض أنهم يبحثون عن ثمن لقبولهم بوقف المجزرة. ووظيفة الإبادة في هذه الحال انتظارية واستطلاعية، بالإضافة إلى وظائفها الاستئصالية.

وهنا يمتد سؤال الفظاعة ليشمل الغرب وقيمه أيضاً، فتعليق مستقبل سورية، وإن انطوى على عدم قبول ببشار الأسد، يعني قبولاً باستمرار المجزرة، وهذه الأخيرة ليست فكرة غير محققة، ولا صورة تحتاج إلى من يُجليها، فهي موثقة بما لا يقبل الشك. وأن يقول محامي ادعاء دولي أن وثائق تحقيق "نيويوركر" أغنى من أي وثائق سبق أن عاينها في تاريخ المحاكمات الدولية، فما يرتبه ذلك يتعدى العجز عن تحويل الملف إلى الجنائية الدولية. فالغرب إذا ما أراد أن يقول: هذه قيمي، عليه أن لا يكتفي برفض قبول مستقبل لبشار بل أن يسعى في المهمة.

والحال أن الوثائق المسربة وضعت العلاقة المستقبلية بين السوريين واحتمال أن يكونوا جزءاً من العالم أمام امتحان فعلي. وتقرير "نيويوركر" ذكّر هذا العالم بما قاله بشار الأسد لبربارة والتزر: "مشاركة سورية في الأمم المتحدة لعبة نلعبها، وهذا لا يعني أننا نصدقها". وإذا كان العالم معنياً بأن يقول للسوريين إن العلاقة مع قيمه يجب أن لا تكون كعلاقة بشار مع الأمم المتحدة، فعليه أن يتحرك لحماية هذه القيم من هذا النظام، تماماً كما تحرك لحمايتها من "داعش".
واذا كان من فظاعة لم تُشبَع تأملاً في هذا العرض فهي الفظاعة التي افتُتح بها، والمتمثلة في قيام الممانعة بإجبار السوريين على الخضوع لرئيس لا تؤمن به هي نفسها.

الحياة اللندنية

المصادر: